إهداء من مركز الدراسات التباوية

أوهام فزعة

للكاتب

امراجع السحاتي

تقديم

عبد الله لبن

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

رقم الإيداع	2015/؟؟؟
I.S.B.N	978-977-728-؟؟؟-؟

مُقَدِّمَة

نقدم الكاتب امراجع عطية أدم السحاتي مواليد 1960بنغازي / ماجستير علوم سياسية / كاتب وباحث أكاديمي / خبرة في مجال الإدارة / عضو في عدة جمعيات مجتمع مدني / عضو في رابطة الأدباء والكتاب بنغازي / شارك في العديد من المؤتمرات على سبيل المثال لا الحصر مؤتمر الأدباء العرب 2009 سرت/ مؤتمر الأدباء العرب والأفارقة 2010/ بنغازي المؤتمر العلمي الأول حول التداعيات الأمنية في ليبيا / الزاوية / كاتب صحفي مهتم بالتاريخ والتراث والسياسة وكتابة البحوث، يسعدني كمدير مركز الدراسات التباوية أن أقدم لك عزيزي القارئ أول إصدار له "أوهام فزعة".

تقديم/ عبد الله لبن

تنويه

شخصيات هذه الرواية ليست حقيقية وانما هي رؤية شخصية، وأسماءها من نسج الخيال، وهي تعالج ما ورد من أخطاء في تراثنا الشعبي وتاريخنا الذي حاول البعض طمسه خاصة من حكام الحقبة التي تجري فيها أحداث هذه الرواية وما قبلها وما بعدها.

الجزء الأول

الهم ... !

(1)

فرق تسد

الصق النظام القره مانلي تهمة إخراج عدد من العائلات والقبائل بمناطق كثيرة من ليبيا، سواء بالقرب من مقر إقامة الباشا في نيابة طرابلس الغرب أو فزان أو برقة لقبائل وعائلات من نفس أبناء عمومتهم. لقد واجهت الأسرة القره مانلية وقبلها الدولة العثمانية تمردا وثورات على حكمهم خاصة من مناطق الدواخل بليبيا، وكان الباشاوات في قلق دائم من هذا التمرد والثورات، الأمر الذي أدى الى تقليص العديد من حاجاتهم، فنتيجة لهذه الثورات والتمرد قلت الضرائب وانكمشت خزينة النيابة أو الولاية أو الدولة، هذا كله أشعل الحقد والتفكير لدى الباشاوات والباكوات وأعوانهم. لم تفلح الحملات التي كانت تشن ضد تلك الثورات، وكان خيار الباشا هو تنفيذ سياسة فرق تسد، من خلال بث الفرقة بين القبائل والعائلات، حتى يعيش نظامه اكثر مدة من الزمن، وكان له ذلك.

ففي منتصف القرن الثامن عشر ميلادي عندما رأى النظام القره مانلي، والذي تربع على عرش ليبيا بعد أن انفصل عن الدولة العثمانية مؤقتا، والذي كان مركزه طرابلس الغرب بأن منطقة برقة قد قويت فيها القبائل وصارت تشكل تهديدا للنظام، فكر في أستخدم سياسة بها يستطاع أن يسيطر على معظم المناطق في ليبيا وهي سياسة (فرق تسد).

بعد مضايقة تلك القبائل للولاة والحكام بمناطق عديدة في برقة رأت الحكومة القره مانلية أن تستخدم سياستها التي تطيل حكمها، فصارت تبحث عن أسباب وتهم تلصقها بأحد القبائل وتشعل بها حربا جماعية على القبائل

الأكثر عددا والأكثر تهديدا لها، لقد فشل باشاوات وباكوات وولاة النظام القره مانلي من تركيع العديد من القبائل الليبية في كل مكان رغم استخدامهم أعتى أساليب التعذيب والتهديد والترهيب ضد المواطنين، وذلك من استخدام " الخازوق تلك الأداة التي استخدمت في تعذيب العديد من الليبيين، وكذلك الى النفي والقتل والتشريد.

رغم التعذيب والنفي والتشريد، إلا انه لم يثن القبائل الليبية خاصة في منطقة برقة والتي تبعثرت قبائلها في سفوح الجبل الأخضر وسواحل ليبيا الشرقية، حيث صارت تلك القبائل مثلها مثل القبائل الليبية في فزان وطرابلس تتمرد على النظام القره مانلي، فامتنعت الغالبية العظمى من دفع الضرائب والعطايا، وتهرب البعض الآخر من أي خدمة للنظام، وهذا شكل تهديدا للنظام الحاكم، فصار أفراد تلك القبائل يشكلون تهديدا حقيقيا للحكم القره مانلي، لهذا فكر النظام في خطة يتخلص فيها من تلك القبائل ويضمن امتلاء خزائناه من مدفوعات الضرائب، بعد أن يسيطر على الوضع خاصة بعد أن شعر بقوة تلك القبائل، والتي صارت قوة ضاربة ومستعدة لقتال القره ماناليين.

كان لدى النظام القره مانلي باكوات وعملاء بمنطقة برقة، خاصة في بنغازي ودرنة، وقد استطاع ذلك النظام استخدام هؤلاء في جلب التقارير والأخبار عن المنطقة، ومن ضمن ما كان يورد للباشا وهيئة ديوانه خصام بعض العائلات، والتي تنتمي في الأصل الى جد واحد، وكان الخصام في العادة على أراضى الحرث والرعي وآبار المياه.

في طرابلس حيث مقر النظام الحاكم وصلت التقارير والمعلومات عن المنطقة، فكانت فرصة لإشعال الفتنة والمعارك بين العائلات التي تكون القبيلة

الواحدة، وذلك حتى تتخلص من قوتها وتكسر شوكتها وتحكم المنطقة بكل سهولة. ونفذت ونجحت وقامت فزعات " نجدات " من الحكومة العثمانية والقره مانلية للقضاء على العائلات والقبائل التي تشكل خطرا عليها بحجة مساعدة العائلة الاضعف، تلك العائلات رغم أن الخصام بينها كان بسيطا ولا يرقى الى القتال والتطاحن الا أن الباشا وأعوانه كانوا يجندون الفزعات "النجدات" مهمين بأنهم جاؤا لنجدة الضعيف. كثرت الفزعات الموهمة وكثرت اوهام الفزعات.

من أهم العوامل التي كانت تدفع النظام القره مانلي لتطبيق سياسة فرق تسد، هو ضعف الحكومات القره مانلية المتعاقبة على حكم ليبيا، حيث كانت عاجزة عن إخماد الثورات وبسط سيطرتها على كل الأراضي الليبية، إضافة الى عدم دفع الكثير من الليبيين الضرائب أو خراج " الميري" تلك الضرائب المفروضة جبايتها على الأشجار والأراضي والمواشي والتي تقدر بالعشر.

كان الكثيرمن الليبيين يجهلون بعض المواضيع الدينية والعبادات لعدم اهتمام العثمانيون والقره ماليون بالتعليم وباقامة المساجد، ولهذا سادت عادات كانت سائدة في الجاهلية كالثأر والتقرب الى الأضرحة كوسيط الى الله لشفاء المرضى وحل المنازعات بالحلف على الضريح "المرابط " والذي كان يوما ما مواطنا صالحا وتقييا.

عاش الكثير من سكان ليبيا بعد أن استقر الوضع بعد الفتح الإسلامي، وتثبيت الدول الإسلامية المتعاقبة في جو من الوئام والإخاء والسلام، وكانت برقة من ضمن المناطق الليبية التي عاشت في ذلك الوئام والإخاء في ظل المسلمين

الذين كانوا مرابطون في عدة أماكن، والذين امتازوا بالصدق والعمل من اجل الدين في ظل الفتوحات الإسلامية.

مرت السنوات سنة تلوى الأخرى، وسيطر العثمانيون على ليبيا وعلى الكثير من الأقاليم العربية بعد أن تكونت قبائل في شتى المناطق، والتي كان معظمها يدين الولاء للدولة الفاطمية وقد كانت برقة من ضمن تلك المناطق، التصقت عادات وتقاليد من الأماكن التي جاء منها البعض، خاصة الذين قدموا من الجزيرة العربية من قبائل بني سليم، ومن تلك العادات الاحتفال في عاشوراء، وإنارة المصابيح في الليل احتفالا بالمولد النبوي، وحتى في طريقة النديب الذي كانت تقوم به النسوة وفي بعض الأحيان يدخل معهن بعض الرجال.

ففي المولد النبوي كان الأطفال يخرجون في الليل حاملين مشاعل سواء كانت مصابيح صغيرة أو جذوع أشجار بها شعلة نار ويمرون بها في الخلاء مرددين أشعارا ذاكرين فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وعلي رضى الله عنه حيث كانوا يقولون:

" هاض قنديل وقنديل يشعل في ظلمات الليل

هاض قنديل النبي فاطمة جابت على "

وقد كان بعضهم يزور الأماكن المقدسة للشيعة في العراق خاصة النجف وكربلاء في العراق.

كانت تلك القبائل تنتمي الى نسب واحد وجد واحد، صار لكل عائلة وبيت من تلك القبائل مكان للرعي والحرث والإقامة فيه، وإقيمت الحدود باحدائيات طبيعية كصخرة كبيرة أو طريق للإبل أو " مراد " طريق للحمير

أو ارتفاع معين أو وادي أو جبل، وعرفت آبار لكل عائلة وبيت وصارت ترد عليها مواشيهم ويستسقون منها.

كانت تحدث بعض المنازعات على الحرث وعلى المراعي خاصة بين الشباب، وكانت تلك المنازعات تصل للعراك، وكان شيوخ وعقال القبائل في تلك المنطقة، ينهون تلك النزاعات والصراعات، وبعض تلك المنازعات قد تصل للقتل في حالة الغضب، وكانت هي الأخرى يتم حلها بواسطة تدخل شيوخ واعيان القبائل ويتم فيها تحرير سند صلح يطلقون عليه " الجرح "، بعد أن يتم إعطاء الدية التي يتم إعطاءها لأهل المقتول وعادة تلك الدية كانت عدد معين من المواشي.

بعد سقوط غرناطة على يد الأسبان، قدم الى مناطق الساحل الليبي العديد من اللاجئين من الأندلس وغرناطة، وقد عاش هؤلاء واستقروا في المدن الساحلية كطرابلس وبنغازي ودرنة وغيرها. كما كان بعض أفراد الحجيج القادم من شتى بقاع المغرب العربي والأندلس يتحببون المكان ويقيمون فيه إقامة دائمة وخاصة الذين يعجزون عن مواصلت الرجوع. كانت هناك فزعات تقوم بها العديد من القبائل لنجدة بعضها البعض من خطر الغزاة، حيث كانت تتحد في احلاف او صفوف واحدة لنجدة بعضها البعض. وقد استغل الحكم العثماني والقره مانلي ذلك في خلق النجدة المهومة. كانت هناك عديد الفزعات المهومة وصارت اوهام " الفزعات " تراود الكثير من الغاضبين والناقمين ولكن سرعان ما يردون عنها حين يكتشفون مخاطرها وخداعها وأوهامها.

(2)

الحاج بوحرف

منذ سنوات أخرجت عائلة بوحرف عائلة بوأمحور وتربعت على عرش هذه المنطقة التي تمتد من طرف من أطراف الجبل الأخضر وتصل الى الغابة التي تبدأ من الجبل الى بساط يوصل الى الصحراء، صارت مواشيهم ترعى بكل حرية في تلك المنطقة من أراضى برقة، ولم تعد هناك عائلة تستطيع أن تطرد تلك المواشي من مراعيها.

كان بوحرف طويل القامة وطويل الأنف، ذو عينين عسليتين، وكانت بشرته بيضاء، كان له شنب طويل فوق شفتيه تميز به عن باقي أفراد قبيلته، أما شعر رأسه فقد كان اسود اللون يتخلله الشيب، نقشت في منتصف جبهته نقطة وكذلك في اسفل ذقنه وجميع تلك النقوش صارت خضراء، وقد تجاوز الخمسين من العمر، وكان يحب ارتداء البرنوس فوق باقي ملبسه، والذي كان يتمثل في قميص طويل يصل الى منتصف الساقين، وسروال واسع من الوسط وضيق عند الساقين، وكان يشد على الحزام بخيط مصنوع من نسيج غزل الصوف يطلق عليه سكان تلك المنطقة التكا، كان يرتدي فوق القميص صدرة بدون أزرار والتي يطلق عليها سكان تلك المنطقة " الفرملة"، وينتعل مداسا مصنوع من جلد الإبل. ولد بوحرف بأحدى أراضى برقة، وكان الابن الوحيد لأبوه، كان والده شيخ عائلته، تعلم بوحرف القنص واستخدم في ذلك الهراوات والمقاليع والصقور والكلاب والبنادق بوصوانة. اسمه الحقيقي امبارك، ولكن حبه للعب فوق المرتفعات أطلق عليه لقب بوحرف، وصار هذا الاسم لصيقا به وذاب اسم

امبارك مع مرور الزمن. تعلم ركوب الخيل صغيرا مثله مثل أبناء جيله، تزوج من جازية ابنة عمه وانجب منها خمسة أبناء ثلاثة صبية وبنتين، قتل أبوه على يد أحد فرسان أحد القبائل في خصام على حرث، وهذا الحدث غير من سلوكه بعد أن كان هادي المجاز، صار فضا سريع الغضب لا يحب تبادل أطراف الحديث مع أحد، اثر ذلك على سلوكه كثيرا والذي لم يكن أسوء من سلوكه القديم إلا أن من قبل ذلك لم يتخط محيطه الشخصي، فقد أشتهر بالغضب والتوتر حين يتم انتقاد أحد أفراد أسرته، وقد يتحول ذلك الغضب الى مشادة كلاميه، وفي بعض الأحيان الى مشادة بالأيدي، اصبح بعد مقتل والده شيخا لعائلته، انطلق سلوكه من محيطه الضيق الى محيطه الواسع ليشمل المنطقة بأسرها، امتاز بوحرف عن غيره من أترابه بالشجاعة والذكاء. تفنن في حل الأحاجي الواردة في أغاني صوب خليل، وتعاطي الشعر الشعبي بأنواعه من غناوى العلم والشتاوى واغنية الطق الى ضمة قشة. فلم يهزمه أحد في حياته، إضافة الى ذلك فهو افضل من يطلق المقلاع " الفرقلة "، فضربته به لا تخطي الهدف أبدا، وكذلك بالبندقية، وابوحرف هو الوحيد الذي يخبر غابة الجبل الأخضر ووديانها وكهوفها.

كان بوحرف يحب استكشاف الأشياء الغامضة أو التي يسمع عنها، وكانت له مغامرات كثيرة، فذات يوم خرج مع أحد رفاقه للبحث عن كنز أشيع بأنه في أحد كهوف الجبل الأخضر تحرسه جنية خارقة الجمال. دخل مع صديقه الغابة مساءا وقد غابت أشعة الشمس واعتم المكان وهما في منتصف وادي مرقس، ذلك الوادي الذي احتمي به مرقس أحد اتباع عيسى عليه السلام من أعدائه، وعاش فيه مدة من الزمن. أظلمت الغابة والجبل والوادي على بوحرف

وصديقه في ذلك اليوم، ولم يصلا الكهف المقصود إلا في آخر الليل. توقف بوحرف أمام الكهف واخرج من مخلته قطعة قماش ولفها على عصى ثم اخرج زند فحكه على حجر صغير من الصون فأشعل به نارا في قش كان بالقرب من فوهة الكهف، ثم مد العصى التي علقت بها قطعة القماش في النار فاشتعلت قطعة القماش تلك. تقدم بوحرف ودخل الكهف، ثم تتبعه رفيقه، وفي منتصف الكهف شاهدا امرأة ذات جمال خلاب وكان شعر رأسها يكاد يلمس الأرض، ووجهها وردي اللون، متناسقة الجسم، يبرز من وجهها الدائري الشكل عينين جميلتين زرقاء بلون السماء، وترتدي لباسا إغريقيا. شهق رفيق بوحرف وانطلقت منه كلمة إعجاب ولم يكمل آخر حرف منها حتى قذفته تلك المرأة الجنية الى فوهة الكهف فسقط مغشيا عليه، حينها اختفت تلك الجنية. لاذ بوحرف مسرعا الى فوهة الكهف ليسعف رفيقه. رجع بوحرف بصديقه الذي كان في حالة خطيرة للنجع واقسم أن لا يرجع للبحث على ذلك الكنز بعد أن شعر بان ذلك الكنز ملعون.

مرت سنوات صار شباب عائلة بوحرف يتسكعون في كل حدب وصوب مخترقين كثير من الأعراف والتقاليد الشعبية بالمنطقة، وصار بعضهم يعبثون فسادا في المنطقة دون حسيب ورقيب.

خرج ذات صباح صيفي الحاج سعيد نيابة عن نجعه، والحاج محمود نيابة عن نجعه، ومجموعة من شيوخ النجوع بالمنطقة يسيرون موازين بعضهم البعض، قاصدين نجع بوحرف للحديث معه بشأن مخاطبته بما يقوم به بعض شبابهم من اعتداءات على شبابهم وشيطنة. ولكنهم وهم في الطريق بالقرب من

الغابة، التي خرج جزء منها من الجبل الذي تكونت فيه، تصادفوا مع بوحرف وأربعة رجال من نجعه، كانوا جالسين يتبادلون أطراف الحديث في ساحة الدرس التي خلت من أي محصول والتي يطلق عليها سكان تلك المنطقة اسم " القاعه ". الحاج سعيد هو الآخر من سن بوحرف، كان متوسط القامة، ذو بشرة بيضاء وأشعة الشمس جعلتها سمراء، له عينين عسليتين، وانف طويل، كان ملتحي الوجه، وشمت على جانبي وجه أمام كل أذن وشام على شكل ثلاثة نقاط اثنتين متقابلتين والثالثة فوقهما، وهذا الوشم تجده على اغلب الرجال في تلك المنطقة، يمتاز بالجدية في العمل والحديث، يحب الخير ويكره الشر، ليس له أعداء، ولا يحب الصيد ولا حتى تربية الصقور التي كان يفتخر بتربيتها الكثير، فهو ضد الصيد وأمساك الصقور لغرض تربيتها؛ لأن ذلك فيه شيء من الحرام خاصة عندما يكون الصيد في اوقات تزاوج الطيور والحيوانات البرية. أما الحاج محمود فهو الآخر في نفس عمر الحاج سعيد والحاج بوحرف، كان طويل القامة، وذو بشرة بيضاء أحرقتها أشعة الشمس وصارت سمراء، وكان له انف طويل، وعينيه عسلية، كان ملتحي الوجه، وعليه الوشم الذي في العادة يوشم به الرجال وشم الثلاثة نقاط، كان هو الآخر لا يحب الشر، ويحب الخير للجميع، وهو كذلك لا يحب الصيد وهذا ما جعله رفيقا للحاج سعيد، والحاج سعيد والحاج محمود والحاج بوحرف جدهم واحد. نهض الرجال الأربعة الجالسين بالقرب من الحاج بوحرف، وبقى هو جالسا يتوسد بردعة حمار كان يتقافز بقيده في أطراف ساحة الدرس يبحث على ما يأكله. توقف الحاج سعيد ومن معه عن المسير حين اقتربوا من ساحة الدرس تلك وسمعوا الحاج بوحرف يقول:

- تفضلو... جرو جاي

فرد عليه الحاج سعيد قائلا:

- وزيد فضلك يا حاج...

كان عدد الرجال الذين مع الحاج سعيد أربعة بما فيهم الحاج محمود. تجمهر الرجال بالقرب من الحاج بوحرف داخل ساحة الدرس. انطلق بينهم الجدال. بعد أن جلس الجميع بدأ الحاج سعيد بالحديث وقال:

- يا حاج بوحرف قبل جيينك في الغوش..

بيش نحكولك على عويللكم اللي خربو علينا اميوحنا.. وضياقو عويلنا...

فرد عليه الحاج بوحرف قائلا:

- وايش دارو عويلنا....

فرد الحاج سعيد قائلا:

- لزو عويلنا.. وهم يحدفو في غلمنا بالحيط...

زيد يا زايد اول امس افجخو ولد الحاج امحمود..

بالحسن جت بسيطة... جاتا طوبة يابسة من فرقلة.

اعتدل الحاج بوحرف في جلسته وصار يجلس بركا على ركبته وقال:

- كيف افجخو ولد الحاج امحمود...؟

هالكلام ما صارش بلكل.... انت يا حاج سعيد غلطان

راهو عويلنا ديما يظهرو للوطن الشرقي امعا الرغث

يسرحو بيهن في قصالينا الشرقيات....

نظر الحاج محمود الى الحاج بوحرف وكأنه يعارض الكلام الذي نطق به ثم قال:

- لا يا حاج بوحرف كلامك مش مزبوط...

عويلكم امس كانو على بيرنا الغربي... حاسين فيها اغنى وتكشيك

فرد عليه الحاج بوحرف في شيء من الغضب قائلا:

- كيف يا حاج امحمود.. من كلامك نابيدي كذاب... كبر مقدارك يا سيدي...

تدخل الحاج سعيد ليغير الحوار والنقاش، ليكون حوارا ونقاشا ذا فائدة ترجى ويكون سليما دون أي توتر وانفعال وقال:

- يا حاج بوحرف نحن جيناك بيش توصي عويلكم

ما يجوش شور عويلنا وبيش ما يسير بينهم عركه.

وقف الحاج بوحرف من الأرض، وهو يحاول إنهاء الحوار وقال:

- باهي يا حاج سعيد اسمعنا كلامك...

مفيش حاجة أخرى تبي اتقولها...؟

فقال الحاج سعيد بعد أن عرف فحوى السؤال:

- لا ما عندي ما انقول... باس يا بوحرف نحن انوقضو فيك علي

ايديور فيه عويلكم مش بعدين اتقول ما وقضني حد...

ما أن قال الحاج سعيد ذلك حتى شرع في النهوض هو الآخر، وتبعه في ذلك الحاج محمود وباقي الرجال. غادر الحاج سعيد وأصحابه ساحة الدرس " القاعة "، وبقى الحاج بوحرف واقفا وهو تظهر عليه علامات الغضب والتوتر، ومن حوله رفاقه، فقد ظهر ذلك على وجهه الذي احمر وبرزت عينيه الى الأمام وكأنها ملت الانتظار من السكون في هذا الوجه البأس الحزين، وكأنها تود أن تعبر عن غضبها للحاضرين.

(3)

الاجتماع وشرارات عراك

مرت أيام وأسابيع وشهور، ولم تتغير معاملة بعض شباب نجع الحاج بوحرف تجاه النجوع الأخرى. ففي أحد الليالي الربيعية اجتمع شيوخ النجوع عند الحاج سعيد وقرروا بان يذهبوا مرة أخرى للحاج بوحرف، وقد فوضوا الحاج سعيد ليتحدث نيابة عنهم جميعا لمخاطبة الحاج بوحرف عما يفعله بعض أفراد عائلته والذين صاروا يبحثون في الأرض فسادا.

خرج الشيوخ وكان عددهم سبعة يقودهم الحاج سعيد قاصدين نجع بوحرف. امتطى كل منهم حصانه والذي كان مجهز بكل تجهزاته، وانطلقوا صوب نجع بوحرف. وفي نجع بوحرف كان أحد أفراد عائلة الحاج سعيد قد وصل قبل الشيوخ واخبر الحاج بوحرف بان الحاج سعيد، وبعض شيوخ النجوع القريبة منه قد عزموا للحضور إليه للاجتماع به ومخاطبته بموضوع يخص النجوع. ما أن سمع الحاج بوحرف ما قاله المرسول حتى احترق من داخله غضبا، ولكنه لم يظهر ذلك للخارج. استعد الحاج بوحرف لاستقبال الضيوف وجهز لهم وليمة عشاء على شرفهم. انتظر بعض فرسان الحاج بوحرف على مشارف النجع لانتظار الضيوف الذين سيهلون عليهم هذه الليلة، وكل منهم يحمل بندقيته على كتفه خشيت أن تكون هناك خديعة لغزو نجعهم فقد صار الحس الأمني لدى فرسان نجع بوحرف يوحي لهم بان هناك غزوا وحربا سوف تقوم في أي لحظة مما شاهدوه من عوامل تساعد على ذلك. ما أن مر جزء من الليل حتى أطلت خيول وعليها الشيوخ السبعة ومعهم الحاج سعيد. دنت تلك الخيول بما

تحمله من شيوخ من فرسان نجع الحاج بوحرف. عرف الحاج سعيد ومن معه بان هؤلاء الفرسان هم من فرسان نجع الحاج بوحرف من خلال تعرفهم على حركات واوصاف الخيول. تقدم أحد فرسان نجع بوحرف وقال للضيوف:

- مرحبا بيكم....

فرد عليه الحاج سعيد قائلا:

- الله ايرحبك...

خطى حصان ذلك الفارس الذي رحب بالحاج سعيد ورفاقه عدة خطوات، فصار حصانه يتقافز ويصهل، فشد لجامه وقال:

- هيا تفضلو امعنا شور بيت الحاج بوحرف..

مضوا الشيوخ السبعة والحاج سعيد خلف فرسان نجع بوحرف قاصدين خيمة الشيخ بوحرف. في خيمة الحاج بوحرف، جلس الحاج بوحرف يتكي على وسادة منسوجة من غزل الصوف. كانت الخيمة يتوسطها عمودين كبيرين، مفروشة بكليم منسوج من صوف الأغنام بعدة ألوان، وتتبعثر على هذا الاكليم بشكل منظم مجموعة من الوسادات، كان مدخلها كبير حيث فتح جانبها الأمامي بالكامل. كانت تنار بمصباحين من الفخار، حيث كان كل عمود من العمودين التي في وسط الخيمة يحمل مصباحا تخرج من فوهته قطعة قماش مغمورة في زيت الزيتون المتواجد داخل المصباح الفخاري. صارت إنارة الخيمة تبرز من فيها بوضوح بسبب ما تبعثه تلك المصابيح من إشعاعات ضوئية. جلس الحاج بوحرف يتكي على الوسادة في أقصى الخيمة، وكان بجانبه رفيقه سعد وثلاثة رجال من النجع، وكان أمام الخيمة مجموعة من الشباب

يترقبون حضور الضيوف. دخل الحاج سعيد ومن معه من الشيوخ الى الخيمة. توقف الحاج بوحرف ومن معه مرحبين بالضيوف، فقال الحاج بوحرف من أقصى الخيمة:

- مرحبا... مرحبا... هيا تفضلو... مرحبا بيكم..

فرد الحاج سعيد قائلا:

- الله ايرحبك يا حاج بوحرف...

تقدم الحاج بوحرف نحو الضيوف فحين استمر بقية رفاقه واقفين، وقال:

- هيا خشو جوا...

تقدم الحاج سعيد ورفاقه نحو الحاج بوحرف، وسلموا عليه ثم شرعوا بالترحيب بالواقفين الذين كونوا نصف حلقة تنتهي بالمكان الذي كان يجلس به الحاج بوحرف، وعم شيء من الضجيج في ارجاء المكان. اخذ الحاج بوحرف مكانه وجلس بجانبه الحاج سعيد، الذي جلس بجواره رفاقه السبعة. نظر الحاج بوحرف الى الحاج سعيد ورفاقه وقال:

- كيف حالك يا حاج سعيد...؟

كيف حالكم يا اجواد...؟

فرد الحاج سعيد قائلا:

- الله ايسلم حالك..

تربع الحاج بوحرف ووضع الوسادة على ركبتيه ثم قال:

- كيف حال عربكم كلهم....؟ انشاء الله ابخير كلهم.

فرد الحاج سعيد وهو يحاول أن يعدل جلسته قائلا:

- الحمدو لله كلهم ابخير...

نظر الحاج بوحرف الى أحد الشباب الذين كانوا يقفون أمام الخيمة وقال:

- عدي يا ليد جبلنا العشاء...

وتعالو انتو صبو اغسلو على الرجاله.

نظر الحاج سعيد باتجاه الحاج بوحرف:

- كيف يا حاج رانا متعشيين.. والله ما جينا الا بعد ما تعشينا..

فرد الحاج بوحرف قائلا:

- كيف يا حاج.. كيف يا عرب هيا قدموا للغسلة..

... كيف هذا مش كلام يا حاج سعيد...

هذا كلام اصغير..... هيا يا عويل جيبو لغسله.

ما أن سمع الشباب ما تفوه به شيخ نجعهم، حتى اقبلوا بأواني الغسل النحاسية، وتقدموا نحو الضيوف الذين رضوا بالأمر الواقع وصار الشباب يسكبون على أيديهم الماء في الأواني النحاسية ثم قام شاب وصار يسكب الماء من إناء على الحاج بوحرف ورفاقه. بعدها قال الحاج بوحرف:

- هيا يا عرب لمو على الحاج سعيد.

أطلق الحاج بوحرف نظره نحو بعض الشباب كانوا أمام الخيمة وقال:

– هيا يا عويل جيبو العشاء.

ما أن انتهى الحاج بوحرف من كلامه حتى اقبل الشباب بقصاع خشبية ممتلئة بوجبة العشاء، ووضعوها أمام الضيوف ورفاق الحاج بوحرف، كان الحاج سعيد والحاج بوحرف وثلاثة رجال من رفاق الحاج سعيد على قصعة والباقية على قصعة أخرى.

بعد أن انتهى الجميع من أكل الطعام وغسلوا أيديهم، أخذ كل منهم مكانه الذي جلس فيه قبل الشروع في الأكل. اعتدل الحاج سعيد في جلسته وقال:

– يا حاج بوحرف نحن جايينك في موضوعنا لولي اللي تكلمنا فيه في ليام لولا عند القاعة.

فرد عليه الحاج بوحرف قائلا:

– أي موضوع يا حاج..!؟

– موضوع عويلكم واللي ايديرو فيه...!

أطلق الحاج بوحرف نظره نحو رفاقه، وكأنه يقول لهم لا تتدخلوا في هذا الحديث، بعد أن رأى بعضهم متحمسا للحديث، ثم قال:

– يا حاج سعيد كيف ما قلتلكم قبل عويلنا ما يديرو في خطأ بعدين هم في ارضهم يسرحو فيها بغلمنا وابلنا.. وانظني هاض ما فيش شيء.

فرد الحاج سعيد قائلا:

– كيف يا حاج ما فيش شيء... العويل راهو خربو اميوحنا

وضيقو على عويلنا.. كيف ما قتلك من قبل.. حتى صبيانا حرمو عليهن التحطيب من الغابة البحرية.

قال الحاج بوحرف وهو لا يكترث من كلام الحاج سعيد:

– هاضول عويل يا حاج.. واللي ايسير من العويل واجد

آهو شطانة عويل...

فرد الحاج سعيد معترضا على ما تفوه به الحاج بوحرف قائلا:

– لا... لا يا حاج اللي ايسير هو عمل اكبار...

رد الحاج بوحرف محاولا اقناع الحاج سعيد قائلا:

– يا حاج سعيد راهو هاضول عويل وهالعمائل مرينا بها ونحن اصغار.

رد الحاج سعيد لنزع اعتراف بما يفعلونه شباب نجع بوحرف من أعمال مشينة قائلا:

– يا عرب هاضول ما هم عويل... هاضول رجاله اشنابهم اكبار..

بعدين قولي يا حاج بوحرف سميت رزق هاضهى عيل...

فرد الحاج بوحرف وهو يحاول التغطية على أفعال شباب نجعه قائلا:

– يا عرب هاضول عويل.. وبعدين ما درو شيء.. لا فجخو.. ولا انهبو.

رأى الحاج سعيد بان الحديث مع بوحرف لن يؤدي الى ما يرغب فيه. جهز نفسه واستعد للخروج من خيمة بوحرف. نهض فنهض معه رفاقه، وخرجوا قاصدين خيولهم. نهض أحد أفراد نجع الحاج بوحرف مما كانوا جالسين يستمعون للنقاش وقال:

- يا حاج بوحرف كلم هالعويل خليهم يفكونا من هالعرب.. خليهم يبعدو على عويل غوش الحاج سعيد وجيرانهم.

فرد الحاج بوحرف، الذي لم يخرج يودع ضيوفه قائلا:

- اسكت يا رحيل... خليهم ايديرو اللي يبو ايديروه... كلا عيت سعيد وجيرانهم على اعلى ما في خيلهم يركبوه..

توقف الحاج بوحرف عن الكلام، وصار ينظر الى من حوله بنظرات فيها شيء من الاستغراب، لمح ذلك ما حوله ذلك فهزوا رؤوسهم، لم يعرف منها ما أن كانت علامات رضى أو رفض أو استغراب.

تناسى بعض الشباب أنفسهم وصاروا يعبثون في الأرض فساد، وصاروا يفعلون ما يحلوا لهم. وكان هناك الكثير من الشباب يكرهون تلك الأفعال المشينة، ويشعرون بان إخوانهم في عائلة بوحرف قد صاروا يفعلون ما لا يطاق. حاول بعض الشباب من عائلة بوحرف أن يمنعوا هذا العبث والانحراف غير المقبول، والذي سيؤدي حتما الى عواقب وخيمة، ورغم التحذيرات والتنبيهات إلا أن التعربيد والعبث استمر الى مشاء الله، هذا كله جعل شباب وشيوخ عائلة الحاج سعيد أحد العائلات التي تقطن نفس المنطقة بان تجهز نفسها لمحاربة عائلة بوحرف.

(4)

هم

ذات مساء وقبل غروب الشمس بفترة وجيزة، شكلت مجموعة من النسوة في نجع الحاج سعيد دوائر نقاش، فقد شكلت كل أربع وخمسة منهن دائرة وتربعن أمام الخيام يتجادلن أطراف الحديث حول مشاكلهم وهمهن مع عائلة بوحرف، ذلك الطاغي الذي حول الاخوة أعداء بمساعدة والي المدينة.

كان ذلك النجع يتكون من عدة خيام قد رتبت في خط مستقيم، وكان هناك بين الخيام وحولها أعدادا من الدجاج، بعدة ألوان اسود وابيض وبني تتبع الديوك، كانت هناك كلاب بعضها تمدد بالقرب من خيام أصحابها وغطت في النوم، والبعض الآخر صار يتمشى يتفقد الخيام لفة ذيولها بكل كبرياء، كان هذا النجع في السابق ينعم في سلام ويعيش أهله في جو من الهدوء والهناء، كانت نسوته تعمل في عمل يومي دؤوب من خلال كنسهن أمام الخيام، وتحطيب الحطب من الغابة، وجمع روث البقر والإبل اليابس من مراعي المواشي. بعد استبداد الحاج بوحرف وعائلته، دخل الذعر نفوس الكثير من تلك النسوة بسبب القلق على أبنائهن الذين ضاقوا ذرعا من أفعال عائلة بوحرف. أفعال عائلة بوحرف جعلت عديد النسوة من نجع الحاج سعيد في دائرة التفكير المخيف. في أحد خيام النجع جلست أربعة نسوة كانت أحدهن الحاجة فاطمة زوجة الحاج سعيد والتي أنجبت له والدين وهما حمد وعمر وبنتين وهن عزيزة وغالية، كانت الحاجة فاطمة في منتصف الأربعينات من العمر، متوسطة

القامة، وهي ترتدي في هذه الجلسة رداءا ازرق اللون مخطط بخطوط طويلة بيضاء، وتتحزم بحزام احمر اللون، وترتدي سروالا واسع من الوسط الى أن يصل نصف الساقين كان اخضر اللون مزركش بالورود يغطيه الرداء الذي يصل طرفه الخلفي الى الرجلين، والذي عادة ما كانت تستخدمه النسوة لتغطية الرأس أو تثبت فيه الأطفال الصغار حين تسافر الأم أو تقوم بالعمل. كانت الحاجة فاطمة تلف شعر رأسها بمحرمة حمراء مزركشة بالورود البيضاء، كان وجهها دائري، وبها بعض الوشام في منتصف الجبهة وأسفل الذقن وعلى جانبي الأنف، أما الأخروات فكانت الحاجة زمزم زوجة أحد أبناء عم الحاج سعيد، وهي في سن الحاجة فاطمة، كانت الحاجة زمزم ترتدي رداءا اخضر اللون تتخلله بعض الخطوط البيضاء، وترتدي سروالا ازرق اللون مزركش بالورود البيضاء، وهو مثل كل سراويل النسوة بالمنطقة، كانت الحاجة زمزم تغطي شعر رأسها الذي اشتعل شيبا بمحرمة حرير من نفس لون الرداء، وتتحزم بحزام احمر باهت اللون، وقد جلست على يمين الحاجة فاطمة، كما كانت هناك الحاجة مريم ذات الخمسين عاما وهي شقيقة الحاج سعيد من ضمن تلك النسوة، حيث تربعت جالسة بالقرب من الحاجة زمزم، وكانت ترتدي رداءا احمر اللون تتخلله خطوط بيضاء، وترتدي سروالا ازرق اللون مزركش بالورود الصفراء، وتلف شعر رأسها بمحرمة زرقاء اللون مزركشة بالورود البيضاء، وقد كان القميص الذي ترتديه اسود اللون مزين بالورود البيضاء، وربطت الرداء عند وسطها، أما المرأة الرابعة فهي الحاجة خديجة أرملة حمد شقيق الحاج سعيد الذي دهمه الموت منذ سنوات والذي سميا عليه حمد ابن الحاج سعيد، كانت خديجة مدورة الوجه، طويلة الأنف، بيضاء البشرة مثل الباقية، وتخلل وجهها تجاعيد من أثر

ما فعله الزمان بها، وقد بلغت من العمر ستين ونيف، وهي متوسطة القامة، ترتدي ملابس مثل الملابس التي كانت ترتديها الحاجة مريم شقيقة الحاج سعيد، كان الوشم البرقاوي المشهور الذي كان يوشم ويدق على النسوة واضحا على تلك النسوة، كانت تلك النسوة يتربعن مكونات حلقة صغيرة، يتوسطهن موقد نار مصنوع من الفخار" كانون" مشتعل فيه فحم، كان على ذلك الموقد إبريق شاي عاقب بالقرب منه طبق من سعف النخيل به ستة أكواب صغيرة من الفخار، كان ذلك الموقد أمام الحاجة فاطمة مباشرة، والتي كانت تعد الشاي لتلك النسوة. مدت الحاجة فاطمة يدها اليمني وأخذت الإبريق الذي كان فوق الموقد ورفعته، وصارت تسكب شراب الشاي في الأكواب ثم ترجعه للإبريق، وذلك حتى يصل باردا للضيفات. قامت بذلك عدة مرات ثم صارت تعطي الأكواب للضيفات وهي تقول:

– هيا يا حاجة زمزم تفضلي خوذي طاستك.

فردت عليها الحاجة زمزم قائلة:

– وزيد فضلك يا احويجا.

ثم قدمت كوبا للحاجة مريم، والتي قالت لها:

– الله اكثر شاهيك وزيد خيرك... وفرحنا بفرح أعويلتك.

بعد ذلك أخذت كوبا آخر ومدته للحاجة خديجة، والتي قالت محدثة الحاجة فاطمة قائلة:

– الله يجعلك نوارة هالغوش ديما.

الله اشربك مرة اخرى من امية زمزم.

وما أن قالت الحاجة خديجة ذلك، حتى قالت باقي النسوة:

– انشاء الله كلنا.. انشاء الله انزورو قبر النبي.. وحتى احفاد النبي في كربلا.

كان يتوسط الخيمة عمودين المسافة بينهما حوالي ستة اذرع، كانت الخيمة والتي تعرف في تلك المنطقة بأسم" البيت " مصنوعة من نسيج صوف الأغنام، كانت بالناحية الغربية من الخيمة نضدة كدست عليها عديد الأغطية والنطوع، وقد غطت تلك النضدة بكساء طويل من نسيج الصوف. كانت الخيمة مفروشة بكساء كبير يكاد يفرش معظم الخيمة، وكان ذلك الفراش منسوج من غزل الصوف وشعر الماعز.

بعد أن تجرعت النسوة الشاي، وضعت كل منهن كوبها بطبق السعف. أخذت الحاجة زمزم نفسا عميقا وتنهدت بصوت عالي، ولفت ذلك أنظار النسوة، فقالت الحاجة فاطمة:

– كنك يا حاجة تنهتي..؟ يا اك لا حر ولا شر...

فردت الحاجة زمزم قائلة:

– كيف ما تعرفيش يا حاجة ايش ساير في هالوطن..؟

فقالت الحاجة فاطمة مستعلمة:

– وايش ساير يا حنا مينا..؟

فأجابتها الحاجة زمزم قائلة:

– ما تعرفيش هالحالة اللي عليها غوشنا... ما تعرفيش كيف صار حالنا وحال سعينا؟

قالت الحاجة فاطمة في شيء من القلق:

– وايش صار السوء بعيد يا خيتي؟

فأجابتها الحاجة زمزم قائلة:

– عربنا يبو يتعاركوا امعا عيت بو حرف.. وانتي تعرفي عيت بوحرف.

فردت الحاجة فاطمة مؤكدة ما قالته الحاجة زمزم من ناحية معرفتها بعائلة بوحرف قائلة:

– انقني نعرفهم... نعرفهم هم هلي وديما عريكم واجدا

خاصة قاصة من سميت بوحرف الكبير ولد سيدي....

ولكن يا حاجة بعد ما تزوجت الحاج سعيد وجاني حمد وعمر

صبحتو انتم هلي...

أمسكت الحاجة مريم طرفي محرمتها التي خبئت فيها شعرها الأبيض، ثم قالت:

– وكنك يا حنا ما تكلمي اخوتك وضنا سيدك ايخلو عربنا في حالهم...

نظرت الحاجة مريم نظرة فيها شيء من لفت النظر، وكأنها تريد منها أن تخرج من هذا الحديث، وأردفت تقول:

– قوللي يا حاجة زمزم... ايش دار الحاج محمد في الناقة

اللي راحت اولمس.....؟

فردت عليها الحاجة زمزم بعد أن فهمت النظرات التي صوبت نحوها قائلة:

- يا حنا مينا اولمس قص جرتها وعرف انها اخلطت امعا زوايل عيت الحاج امحمود... والرعيان اول ما حقو السيمة اعرفوها لنا..

(5)

الإنذار

انطلقت دقات الطبول من قمة عالية قريبة من نجع الحاج سعيد فتكرر ذلك في عدة نجوع. كانت تلك الدقات إشارة الى الاستعداد للعراك. عم طنين الطبل في كل مكان، وصار يسمعه الصغير والكبير. استعد فرسان النجوع للانطلاق لساحة العراك. أدخلت دقات الطبول الذعر والخوف في نفوس نساء النجوع، واللاتي أخذتهن دوامة الهلع والرعب مما سيحدث بعد الانتهاء من دوي دقات الطبل. مر جزء من الوقت واقبل على نجع الحاج سعيد مجموعة من الفرسان تعدو على خيول بألوان مختلفة، كان الوقت عند المساء. توقف الفرسان بخيولهم في ساحة النجع، مما افزع الأطفال والشيوخ المسنين والنسوة فتجمعوا بعضهم بالقرب من الفرسان والبعض الآخر عاقبا بالقرب من خيمته يراقب الموقف عن كثب. خرج النجع على بكرة أبيه، كان من ضمن الخارجين الحاجة فاطمة وضيفاتها الثلاثة. ظهر أحد شاب النجع من أحد الخيام وكان ذلك الشاب يحمل على كتفه بندقية طويلة الماسورة، ويربط على وسطه حزام جلدي احمر اللون، ويرتدي قميصا منسدلا فوق السروال حتى الركبتين، وكان سرواله فضفاضا استوح من السروال العثماني الذي كان واسعا من الوسط ضيق عند الساقين، وينتعل حذاءا اصفر اللون، ويغطي رأسه بقبعة منسوجة من الصوف، تقدم الشاب من كوكبة الفرسان الذين نزلوا من صهوات خيولهم وقال:

– كنكم... ايش ساير... يأك لا حر ولا شر...؟

فرد عليه أحد الفرسان، والذي كان يرتدي نفس الزي الذي يرتديه الشاب، والذي يحمل فوق كتفه بندقية بواصونة ذات الحجم الكبير قائلا:

– هيا قول للعويل ايوتو ارواحهم للعركه....

رانا ديرين عركه امعا عيت بوحرف وامعنا عرب هالوطن كلهم....

فقال الشاب في ارتباك:

– ايش عركا... عركا امعا عيت بوحرف....؟

ايش صار في الدنيا...؟ ايش دوت عيت بوحرف امعنا..

ديما عيت بوحرف؟.

تقدم أحد الفرسان من الشاب وقال له:

– يا سعد راه الحاج سعيد قاللنا عدو وجيبو عويل اصغار من الغوش..

واولهم يكون اولدا حمد واولدا عمر...

فصاحت الحاجة فاطمة مذعورة:

– كنهم عويلي.. ايش دوتهم وهالعركه.؟.. ايش دوتهم ايعدو للموت..

نا ما نيش طلقا عويلي بلكل...؟

نظر الفارس للحاجة فاطمة وتقدم نحوها، وما أن صار بالقرب منها حتى قال:

– يا حاجة فاطمة هالكلام من الحاج سعيد هو اللي قاللي هكي.

– كيف تبيني انعطيك عويلي اتشيلهم للموت...

فرد الفارس مطمئنا الحاجة فاطمة قائلا:

– يا حاجة عويلك ساع يبقو بعيد من العركه... وهالعركه ساع تزيد من شجاعتهم وتخليهم رجالا.

لم تصدق الحاجة كلام الفارس ولم ترتاح لنظرات باقي الفرسان، ولكنها تذكرت بان أبنائها هم عماد النجع، وبان مكوثهم يعني التفرقة بين أبناء النجع، فكرت وفكرت ثم قالت:

– وباهي نابيدي ما عندي الا عيلين.. خوذوا واحد منهم باس....

نظر ذلك الفارس الى بقية الفرسان، ورأى علامة الموافقة لما أوردته الحاجة فاطمة من اتفاق، ثم قال:

– او باهي يا حاجة فاطمة.. هيا عطينا واحد منهم...

كان بجانبها ابنها عمر وكان هو الأكبر سنا من حمد، أمسكت يده وتقدمت به للفرسان وقالت:

– هاكو هالعيل..

تقدم فارس آخر من الفرسان، وامسك الخيول التي كانت تنثر بعض الرذاذ من أفواها محدثة صهيل وتحنحنات كادت تغطي على حديث الفرسان وأهل النجع، فحين انطلق بعض الفرسان يجرون داخل النجع للبحث عن الأطفال لنقلهم لموقع المعركة لكي يكونون حافزا لتقدمهم نحو العدو للذود عنهم وعدم رجوعهم إلا بالنصر أو الموت جميعا في ساحة المعركة. أخذ الفرسان عشرة أطفال من النجع وانطلقوا بهم لساحة المعركة. كما التحق بهم عدد كبير

من الشباب بخيولهم وهم يحملون البنادق والتي يطلقون عليها بوصوانه ومنهم من يطلق عليها اسم ام ازنادين أوام روحين، وكذلك الهراوات والخناجر والسيوف، حيث قال أحدهم في انفعال:

– هيا يا عويل... هيا راهو العركه تبي اتسير هاليوم قبلي سيدي بوسلة.

فرد عليه شاب آخر:

– باهي يا سيدي عليك اللي يبي اعارك من توا....

ساع انعدوا غادي واللي فيها حليب اتصيح... اوبعدين قولي وين ام ازنادين؟

– قولي ام روحين..!

– آه ام روحين..

– هيا فكنا بلأ ألتهزي راه ساع اتجي على خشمك..

انطلق جميع الفرسان الى البرية متجهين الى ساحة المعركة، التي بدأت تنطلق بين عائلة بوحرف وأبناء عمومتهم من العائلات الأخرى بعد أن وقفت صفا واحدا لكسر شوكة عائلة الحاج بوحرف. ما أن خرج الفرسان من النجع حتى انطلقت النسوة من خلفهم يقولن:

– سيدي بوسلة خاطرك..!

(6)

المعركة

ها هو نجع الحاج بوحرف، والمتكون من عشرات الخيام في خط واحد وهي عكس الخيام التي اقاموا بها في فصل الصيف فهي قد نسجت وصنعت من غزل الصوف ولونها من الخارجي عادة يكون رمادي. بعض الخيام نصبت بجانبها أفران أسطوانية الشكل والتي يطلقون عليها " التنانير"، والتي بها تجهز أرغفة الخبز. كان النجع يتكون من نسوة ورجال وأطفال. كان الوقت مساءا، كانت أمام النجع بعض حظائر للمواشي والتي يطلق عليها سكان تلك المنطقة "امراحات "، وهي مبنية بأشكال مختلفة دائرية ومستطيلة، حجارة تقابل حجارة بينهما فراغ يملء بالحجارة الصغيرة، ويتم رفعها الى مسافة ثلاثة اذرع تقريبا، وتغطى من فوق بأغصان السدر، كانت تلك الحظائر خالية من المواشي بسبب خروجها للمراعي. ظهرت بالقرب من خيام النجع بعض الحمير المقيدة من عند القوائم الأمامية لها، صارت تلك الحمير تتقافز بين الفينة والأخرى تتبع بعض الحشائش الخضراء التي ارتفعت عن الأرض بعدما كانت تعانقها قبل أسابيع. كان الفصل هو فصل الربيع، والذي صارت فيه الأرض خضراء بسبب نمو الأعشاب والشجيرات، التي صارت خضراء وطغت على كل المكان، صار العشب الأخضر يرى من أمام الخيام لدرجة أن كل الناس أصبحت تردد المثل الشعبي الذي يقول:

- " الربيع من قدام البيت يبان ".

ظهر أمام بعض الخيام أعداد من الرجال يحملون أسلحتهم، بعضهم واقف والبعض الآخر يدب ويسير نحو خيولهم، التي ربطت في مرابطها في

أطراف النجع. تقدم أحد هؤلاء الرجال، وهو يسرع في الحديث والحركة وصار يقول:

– هيا يا عرب كل واحد ايجيب اولدا امعاه...

هيا ابسرعة الحاج بوحرف يراجى فينا عند الحجاج القبلي... قبلي سيدي بوسلة..

وين ما فيه قاعة عيت امجيحيد... هيا سقدوا اراوحكم..

كان ذلك الرجل يرتدي سروالا واسع من الوسط وضيق عند الساقين، ويرتدي قميصا طويل يصل الى الركبتين، ويرتدي فوق القميص صدرة زرق اللون، ويلف نفسه بعباء بنية اللون، وينتعل حذاءا جلديا اصفر اللون، كان ذلك الرجل في الثلاثين من عمره، متوسط القامة، كان يحمل بندقيته على ظهره. أتجه نحو حصان كان عاقب خلف الخيمة التي خرج منها وخطى عدة خطوات الى أن وصله فركبه، وصار يقول من جديد:

– هيا يا عرب سقدوا اراوحكم.. هيا راهو ننقطعوا في هالعركة.

بعد ذلك تحسس العباء التي فوق جسمه وعلى الفور قام بنزعها ورماها ارضا. خرجت بعض النسوة من الخيام المجاورة تولول وتصرخ وتحدث بكاءا متواصلا بسبب اخذ أبنائهن منهن. تقدم رجل آخر من النسوة وقال:

– بطلن اعياط.. هيا انطمرن... هيا خلو الرجالة ياخذو العويل.

ردت عليه أحد النسوة قائلة:

– كيف نسكت وخذين عويلنا للنار الحمرة...!

كان تبو اتعاركو عاركو امغير العويل...

رد على تلك المرأة رجل آخر من الرجال الذين تدججو بالسلاح والهراوات والسيوف والخناجر وقال:

- العويل هم اللي اخلو الرجالة ايعاركو مادام مربوطين في مكان العركة..

تقدمت امرأة أخرى من الرجال وقالت:

- عيب عليكم هاضول ضنا عمكم وخوال اعيالكم وخوالكم.. بلاش هالعرياك.

رد أحد الرجال وهو يسرع في الحديث قائلا:

- هاذا من الحاج بوحرف..... هيا خلونا انسقدو بالعويل.

- الله ايطيحا من حرف..

تقدمت امرأة أخرى كانت تحمل صغيرها في ظهرها بين طيات ردائها وقالت:

- ساع يحطكم في النار الحاج بوحرف بعد ما مت بوه صار كيف الهبل.

تقدمت امرأة عجوز تتكي على عكاز نحو الرجال وقالت:

- امشو يا رجالة... عدو وخوذو اللي تبوه من العويل..

نظرت إليها امرأة في الأربعينات من العمر، كانت تحمل ابنها بين يديها وقالت:

– كله منك هالعركة... ساع نفقد عويلنا..

ما سدكش هلي اللي انقطعو هاذكي السنة... عيب عليك يا عمتي.

تقدمت العجوز من تلك المرأة، وهي تحاول أن تعاركها بالكلام وقالت:

– اسكتي يا أم أربعة وأربعين.. تبي الرجالة ايذلو من عيت اعطيبان...

تبي عويلنا يطلعو ذللا بيش هلك ياخذو علينا الغلبة ويطمعو فينا..

فردت عليها المرأة وهي تحاول أن تهدىء من كلام العجوز قائلة:

– لا يا عمتي الجاضرة.. انتم هم هلي واعربي بعد ما تبيتت من مرعي وصار عندي عويل، باس نا بيدي نبي الخير الكم ولهلي..

لم ترع المرأة العجوز كلام تلك المرأة التي كانت تنتمي من العائلة التي تعاركها قبيلة زوجها، رفعت العجوز عكازها ثم قالت:

– عادو يا عويل ابسرعة... شيلو العويل قبل ما تسير العركه..

عدو دونكم اربطوهم غادي..

أخذ الفرسان مجموعة من الأطفال. صار بعض الأطفال يصرخون ويحاولون الإفلات من ممسكيهم. قصد الفرسان بها أخذه من أطفال الى خيولهم والتي كانت جاهزة للانطلاق، حيث كانت هناك مجموعة من الخيول بكامل تجهيزاتها من السرج الى اللجام. كان الفرسان بكامل أسلحتهم التي تمثلت في الخناجر والهر وارت والسيوف والبنادق بوصوانة. اخذ عشرة فرسان منهم عشرة أطفال ثم رفع الأطفال على الخيول، انطلق الفرسان بالأطفال قاصدين

ساحة المعركة التي، كانت تبعد عن النجع مسافة ليس بالقصيرة. ما أن مرت لحظات حتى عم العجيج من اثر انطلاق الخيول نحو ساحة المعركة. زغردت بعض النسوة رغم الحزن الذي غيم على النجع، كانت العجوز من ضمن النسوة اللاتي زغردن. فحين رسمت علامات الألم والحزن على وجوه الأمهات واللاتي اخذ أطفالهن لساحة المعركة.

تعودت بعض القبائل حين تنوي العراك مع القبائل الأخرى القيام بأخذ أطفالهم ونقلهم لساحة المعركة وربطهم هناك، وذلك لكي يبقى ذويهم يقاتلون حتى يتم لهم النصر؛ لأن ذلك يدفعهم للقتال بشراسة حتى يتم هزيمة القبيلة الأخرى؛ لأن هزيمتهم تعني موت واسر أطفالهم.

انطلقت الخيول وفوقها الفرسان ناحية ساحة المعركة، تلك الساحة التي كانت في ارض واسعة ومنبسطة، تكثر فيها الحجارة الصغيرة والأعشاب والشجيرات الخضراء وبعض أشجار السدر الكبيرة والصغيرة. تقدم الفريقان نحو بعضهما وتم الاشتباك فشتبكوا في عراك بالبنادق والحراب والخناجر والهراوات، كان هناك بعض الرجال المترجلين الذين استخدموا الحجارة كسلاح فصاروا يقذفوناه على الخصم، وصارت حجارتهم تهوي كما تهوي قطرات المطر من السماء. بعض من الرجال من الخصمين استخدموا المقلع في رمي الحجارة الصغيرة على الخصم. حيث صار بعضهم يضع حجر صغير في مقلعه ثم يلفه في الهواء عدد من اللفات ويرمي الحجر صوب الخصم بواسطة ذلك المقلاع المصنوع من نسيج غزل الصوف، وهو عبارة عن خيطين متينين كل واحد يصل الى الآخر بنسيج عريض والذي فيه تضع الحجر، كان ذلك المقلع يطلقون عليه

اسم " فرقلة ". كان هناك أعداد من الأطفال ينتمون الى الطرفين موثوقة أيديهم وأرجلهم عاقبين في ساحة المعركة.

استمر العراك الى فترة متقدمة من المساء الى أن غابت الشمس، بعد ذلك كانت الغلبة لنجع الحاج سعيد الذي انضمت إليه عشرات النجوع لنصرته ونجدته ضد نجع بوحرف الذي عبث في الأرضي فسادا. انتصر نجع الحاج سعيد وأحلافه، وتحصل هو ومن عارك معه على غنائم. تمثلت تلك الغنائم في أطفال وخيول وبعض المواشي التي خلفها ما تبقى من نجع بوحرف والذي فر بعيدا.

(7)

الهزيمة والنصر

رجع فرسان نجع الحاج سعيد، وأحلافه يحاملون الغنائم والتي تمثلت في بعض الأطفال الذين ابقوا أحياء، وكذلك الخيول والإبل التي سقوها أمامهم وهم يطلقون صيحات الغضب لإرعاب هذه الحيوانات حتى ترضى بالمالك الجديد.

كان من ضمن الذين رجعوا الحاج سعيد نفسه، كان يحمل خلفه فوق حصانه طفل صغير في التاسعة من عمره، كان ذلك الطفل يرتدي قميصا ابيض اللون يصل الى ركبتيه، ويرتدي سروالا اسود اللون، وكان حافي القدمين.

ما أن وصل الحاج سعيد مشارف نجعه حتى هلت الزغاريد، ودوت العيارات النارية وعم الهرج بالنجع، تقدم الحاج سعيد ومن معه من فرسان الى خيمته فتعالت الزغاريد، حيث زغردت الحاجة فاطمة مرحبة بزواجها الذي عاد غانما سالما. نزل الحاج سعيد من فوق حصانه، ثم قام بإنزال الطفل الذي كان يركب خلفه. كان بالقرب من تلك الخيمة الحاجة فاطمة زوجته وابنه حمد وعدد من الفتيات والنسوة والرجال. تقدم طفل في سن الطفل الذي أحضره معه وقال:

– هات يا باتي لحصان انعدي نربطا في مربطا.

فرد عليه الحاج سعيد قائلا:

– هاك يا حمد الحصان.. اوعدي جيب خوك عمر من عند سيدك امحمود..

رد حمد قائلا:

– باهي يا باتي.. ساع نربط لحصان وانعدي انجيب خويا عمر..

... وبعدين هو راجل اجي اوحدا.

اخذ حمد الحصان، وقصد به المربط الذي كان خلف الخيمة فحين اخذ الحاج سعيد الطفل الذي أحضره معه من يده وقال:

– هيا خش جوا يا اوليدي.

كانت الحاجة فاطمة تقف أمام الخيمة، وهي تشاهد المشهد وتسمع في استغراب، كيف يقول لهذا الطفل، الذي يقوده من يده يا والدي وهو ليس بابيه، فهو ليس لديه إلا ولدين هما عمر وحمد، عمر في التاسعة من العمر وحمد في الثامنة. وبينما والحاجة فاطمة شاردة وتفكر قال الحاج سيعيد:

– هاك خوذي اولدي يا ياحاجة.

فردت الحاجة فاطمة في استغراب وارتباك:

– جيب يا حاج.. هات.

مدت الحاجة فاطمة يدها اليمنى، وأخذت الطفل من الحاج سعيد، ودخلت به الخيمة، وهي في حالة حزن شديد. كان ذلك الطفل، ذو انف افطس وشعره اكرد، وذو بشرة بيضاء، كانت عيناه سوداء.

دخل الحاج سعيد الى الخيمة، فقام بنزع جرده ووضعه على نطع كان مطروح على الكساء الذي كان فراشا للخيمة، والذي تبعثرت عليه عدد من الوسائد، بعدها اخذ بندقيته وعلقها في العمود الذي كان يمينه وهو من أحد العمودين واللذين تنتصب بهما الخيمة بالمنتصف. جلس وتوسد أحد الوسائد.

أقبلت الحاجة فاطمة وهي تحمل كوبا مملوء بالماء. نزعت الحذاء الذي كانت تنتعله ثم تقدمت نحوه، ومدت الكوب باتجاه زوجها وهي تقول:

– هيا تفضل يا حاج...

فرد عليها الحاج سعيد قائلا:

– ايزيد فضلك يا حاجة...

نظرت الحاجة هنا وهناك، وصارت تتفقد الخيمة، وكأنها تبحث عن شيء قد فقد منها، استمرت تمعن النظر في جميع الاتجاهات. بعد ذلك جلست بالقرب من الحاج سعيد وقالت:

– قولي يا حاج وين اعموره..؟

فرد عليها الحاج سعيد مطئمنا الحاجة قائلا:

– اوليدك اعمر يا حنا في خير...

راهو ما فيش سوء...

– وين هو...؟

– راهو قاعد امعا عما امحمود...

اوراني من بدري دزيتلا حمد...

ما سمعتينيش بدري ونابيدي انقول الحمد عدي جيب خوك.!

تنفست الحاجة فاطمة الصعداء حينما علمت بان ابنها عمر حي يرزق، وانجلى بعض الحزن من محيطها، ثم قالت:

– قولي يا حاج... كيف درتو امعا عيت بوحرف..؟

فرد عليها الحاج سعيد وهو يبتسم:

– كيف ايش درنا امعاهم..؟. عليك سؤال... رانا يا وليه مشينا انتعاركو

ما نا مشين نطلبو...

– يا حاج نبيك تحكيلي عالعركة وانت ديما تعوج في الكلام.

– سار العركة... آه قوللي العركة..!

– يا حاج اوصفلي عركتكم... ايش درتو.. وشن دارو العرب اللي امعاك..

– توا راهو وريا عرب تبي عشاء الحاج امحمود راني سيبتا ايرحب على عمتا سعده

وساع ايجي هو وباقي العرب وبعدين قبل العشاء ردين شورالقاعة اللي صارت فيها العركة...

– راهو من بدري والصبيا ايطيبنا من اول ما وصلنا المرسول....

– اوباهي هاكي اسمعي..

سوقها لو ريتيه اماه على لرض اتقول عميته

واما ترمح فوق روس عالوي

سوقها لو ريتيه عليه لو انزرك زر ما خشيتيه

سوق مر او مالح ما يخشا إلا الشجيع الفالح

عندا سواء مرواحتا والميتا

سوق باسواء تسمع فيه الثقيل كيف لاذياب دفية نواء

سوقها لو ريتيه اماه ترمح فوق روس عالوي واماه على لرض طيح اتقول عميتا...

(8)

الرحيل

رجع ما تبقى من فرسان نجع بوحرف منهزمين يعدون على خيولهم تاركين قتلاهم، ومعهم بعض أطفالهم الذين كانوا في ساحة المعركة. بعضهم اتجاه الى النجع، البعض الآخر اتجه الى مراعي مواشيهم، لإبلاغ الرعاة بضرورة الرحيل جنوبا على الفور. وصل الفرسان المتجهين للمراعي وابلغوا رعاتهم بما عزموا عليه. أما الفرسان الذين قصدوا النجع ما أن مرت مدة من الزمن حتى وصلوا النجع. وهنا خرجت النسوة وبعض من الشيوخ المسنين والأطفال مستقبلين فرسان النجع. ما أن وصل أول فارس حتى لاحظت أحد النسوة المستقبلات علامات الآسي والحزن والهزيمة على وجه ذلك الفارس، حينها أطلقت صرخة دوى بعدها العويل والنديب في نجع بوحرف. بعد أن وصل جميع الفرسان ازداد العويل والصراخ والنديب. نزعت النسوة محارمهن وصارن يتقفزن ويخدشن خدودهن مع النديب والصراخ وانشاد الأشعار الحزينة على النجع وفرسان النجع الذين لم يظهروا على النجع. ترجل الفرسان من على الخيول، وتقدم أحدهم من النسوة وقال:

– هيا يا صبيا فكنا من العياط... هيا لمن ارواحكن..

رانا انقطعنا... هيا قبل ما نقعدو فضيحة.

ثم تقدم فارس آخر وهو يرفع صوته وقال:

– هيا بلاش اعياط يا صبيا... هيا سقدن ارواحكن في هدم لبيوت والشيل من هالمكان...

وقال آخر من الفرسان وهو يسرع في الكلام:

- هيا نرحلو... هيا هدمو لبيوت وضمنها...

هيا خلينا نرحلو من هالغوش قبل ما تزرق الشمس....

تقدمت أحد النسوة الى الفرسان الذين صاروا ينتشرون في النجع وقالت:

- هاذا كله من بوحرف... اجعنا من خسارة لخسارة.

ثم قالت امرأة أخرى:

- يا سمع منك ربي...

بعد ذلك تقدمت امرأة كانت قد أرسلت ابنها الوحيد مع أبيه لساحة المعركة، ولم يرجع الابن ولا أبيه،وقالت:

- وين اوليدي... وين احسونة.... وين باتا...؟

ايش درتولهم... وين اوليدي... وين صاحب بيتي..؟

فرد عليها أحد الفرسان، والذي وقفا يعيز على أهل النجع للعمل في فك الخيام ورفعها على ظهور الجمال قائلا:

- يا وليه هيا فكي بيتك وبعدين انقولولك على اولدك وراجلك...

فردت عليه المرأة قائلة:

- كيف اتقولي بعدين.... والله ماني متحركة من هالمكان نين اتقولولي ايش صار لوليدي وصاحب بيتي...؟

فرد عليها الفارس قائلا:

- يا وليه عيب عليك راكي عطلتينا... هيا ضمي بيتك..

أنهى الفارس الحديث مع تلك المرأة، وصار يساعد رفاقه في فك وهدم الخيام. لم تتوقف تلك المرأة، والتي سألت على ابنها الوحيد وزوجها من السؤال، فتقدمت الى فارس آخر كان متوسط القامة، يقارب عمره من الأربعين، اسمر البشرة وقالت:

- قولي يا احسين ايش صار لوليدي..

فرد عليها حسين قائلا:

- اوليدك اعليوة ابخير...امغير عدي يا خيتي زينب وتي بيتك

بيش الرجال ايحطوه فوق جملكم.

ما أن رأت بعض النسوة زينب وحسين يتجادلا، حتى قدمن نحوهما، وسألن عن أطفالهن، حيث قالن بصوت واحد:

- ونحن عويلنا وين... ايش صارلهم... ايش صار فيهم.؟

فرد حسين وهو يحاول الإفلات من التخاطب مع النسوة قائلا:

- عويلكن اكويسين.... بس هيا فكن ابيوتكن...

هيا خلينا انوتي ارواحنا وانشيل امقبل عند قرين بوحرف...

لم تطمئن النسوة من جواب حسين، وعما اخبرهن عن أطفالهن، ومع هذا لبن نداء حسين، وصارن يسرعن في فك وتهديم الخيام. عم الحزن في

قلوب جميع النسوة، وصار ينطلق من النجع بعض من الأنين والصرخات، عم الضجيج والعجيج. ما أن مرت فترة من الوقت حتى هدمت جميع الخيام ولملمت. أحضرت الجمال وأبركت، وبدأ الجميع يرفع الخيام والأحمال فوق تلك الجمال. استمر الرجال والنسوة في تحميل الجمال بما تستطيع رفعه من أحمال، فحملت بالخيام والأحمال الثقيلة. ركب فوق بعضها الهوادج، ووضعت فيها بعض النسوة. بعد أن انتهى أهل النجع من رفع كل الخيام والأثقال فوق الجمال. انطلقت الجمال وأخذت طريقها للمكان الذي نوى الرحيل إليه ما تبق من عائلة الحاج بوحرف بمجرد أن سمعت الإيعاز الذي أعطية إليها من أصحابها. انطلقت الجمال وبجانبها فرسان النجع على الخيول يوجهونها صوب المكان المقصود. ركبت بعض النسوة المسنات على الحمير. انطلق الموكب في جنح الظلام وسكون الليل الذي بدده الموكب الراحل. كان الوقت ليلا وكان القمر بدرا حين شق ما تبق من عائلة بوحرف نحو الجنوب حيث الاراضي المنبسطة في اتجاه عكس اتجاه نجع عائلة الحاج سعيد وأحلافه. كما مضت قطعان الإبل والأغنام والماعز أمام الرعاة في سرعة غير معتدة محدثة ضجيجا وعجيجا كان يخفيهما الظلام.

(9)

الرجوع لساحة المعركة

انطلق في البرية فرسان نجع الحاج سعيد، وفرسان النجوع المتحالفة معهم في عتمة الليل بقيادة الحاج سعيد، متجهين نحو مراعي ابل وأغنام عائلة بوحرف.

صارت حوافر الخيول وهي تركض وتجري وكأنها الفؤوس في أيدي رجال يحفرون الأرض في غضب شديد. ما أن مرت لحظات حتى وصل الفرسان مراعي مواشي عائلة الحاج بوحرف. آمر الفرسان خيولهم بالتوقف عند المراعي بعد أن رأوا الحاج سعيد، الذي كان يقودهم يلوح لهم ويأمرهم بالتوقف. تفاجأ بعض الفرسان بعدم وجود مواشي في المراعي، وأيقن البعض الآخر بان وجودها مستحيل، ولم يتفاجأؤا من ذلك أبدا. نظروا هنا وهناك ولم يجدوا أي بصيص لوجود دابة في المراعي. صاروا يمعنون النظر في كل الاتجاهات، بعضهم ترجل من فوق حصانه، وجلس القرفصة وصار يضع يده وهي مفتوحة فوق جبهته ويمعن النظر في جميع الاتجاهات. انطلق فارس الى الأمام لتأكد من خيال تراء له من بعيد وكأنه جمل ولكن ما أن وصل ذلك الخيال، حتى وجده شجرة سدر عجوز. انتشر الفرسان يبحثون في المراعي، ولكن دون أي جدوى لم يعثروا على أي شيء. نزل الحاج سعيد من صهوة جواده، وصار يجره خلفه حاملا فوق كتفه بندقيته، والتي طالما كانت عاقبة في خيمته معانقة عمود الخيمة لسنوات. صار يتتبع اثر المواشي. لاحظ من خلال تتبعه الأثر بعض العلامات والآثار التي تدل على أن المواشي قد أخرجت من المراعي عنوة وصارت تتجه جنوبا. حينها قال مناديا الفرسان:

- يا رجالة جارو جاي..

ما أن سمع الفرسان نداء الحاج سعيد، حتى صاروا يقبلون عليه. تجمع الفرسان حول الحاج سعيد، الذي وقف بجانب حصانه، ترجل أحد الفرسان كان في منتصف الثلاثينات، واتجه نحو الحاج سعيد وقال:

- كنك يا حاج سعيد... ايش صار..؟

انشاء الله القيت حاجة تورينا وين السعي..

فرد الحاج سعيد قائلا:

- يا ابراهيم ونابيدي انقص في جرت الغلم حقيت جرت السعي

وهو يجري من المكان ملزوز لاز...

تقدم إبراهيم يجر حصانه خلفه نحو الحاج سعيد، وقال موجها كلامه للحاج سعيد:

- ازعما وين ارحلو... وين رحلو السعي..؟

فرد عليه الحاج سعيد وهو يشير باتجاه الجنوب قائلا:

- انظني قبلو... بوحرف عند قرينا له امقبل...

عندا اقرنة واجدين غادي مازالوا ما اعرفو دعوت شرا.

في ظل صهيل الخيول وطقطقت ارجلها قال ابراهيم:

- توا يا حاج ايش انديروا... ازعما نلحقهم..؟

- لا يا ابراهيم فكنا من حرهم وسوهم..

جات من عند ربك فكونا منهم حتى علشان بنخينا منهم وبنخيهم منا..

ترجل فارس آخر كان في الأربعينات من عمره، وتقدم يجر خلفه حصانه نحو الحاج سعيد لكي يصله صوت الحاج سعيد واضحا جليا، وما أن صار بالقرب منه قال:

- يا حاج خلينا نلحقهم ونقطعهم بيش نفتكو منهم ومن شرهم بلكل..

فرد الحاج سعيد معارض على ما تفوه به الفارس قائلا:

- كيف اتقول هكي يا بوزيد... عيب عليك..!

هاضول راهو عربنا لكن سميت بوحرف امسيطر عليهم

سيطرة كبيره.... ساع ايجي يوم ونلتم على بعضنا كيف ما كنا زمان..

حك ابوزيد عمامته التي كان يلف بها شعر رأسه، وكأنه يريد أن يتراجع عما تفوه به، ثم قال:

- باهي توا ايش انديرو.. نقعدو هناهي والا انروح العربنا..؟

تقدم الحاج سعيد من حصانه، ثم قال:

- هيا يا رجالة انروح العربنا... هيا تحركو خلينا انعدو غادي

بلكي عيت بوحرف ايغيرو على غوشنا.. خاصة وانا ارجالنا اللي غادي اشويا..

امتطى الحاج سعيد صهوة جواده، ثم بدأ الفرسان الذين كانوا يترجلون على الأرض ويجرون خيولهم بأمتطئ صهوات جيادهم وانطلقوا جميعا نحو نجعهم مخلفين خلفهم العجيج والضجيج.

انطلق الجميع وهم يهزون أرجلهم على أكتاف الخيول حثينها على الإسراع نحو نجعهم خشيت أن يداهمهم الحاج بوحرف ورجاله في عتمة هذا الليل الحالك خاصة ما عرف عن الحاج بوحرف من غدر ومكر وحقد.

(10)

نهاية بوحرف

تحرك نجع عائلة بوحرف قاصدا أماكن بعيدة عن أماكن النجوع التي تحارب معها. في صباح اليوم التالي على مغادرة نجع الحاج بوحرف كان النجع الراحل قد قطع مسافة طويلة وابتعد عن مكان الخطر. كانت السماء تغطيها بعض السحب في ذلك اليوم، والتي تراءت للبعض وكأنها تلامس الأرض، تلك الأرض التي تبعثر فيها العشب الأخضر والذي كان عشبا هزيلا ضعيفا، وكأنه لم يرو منذ أمد طويل.

تقدم موكب النجع الراحل جمل الحاج بوحرف يحمل أكياسا كبيرة محملة بالغالي والنفيس، ذلك الجمل، الذي طالما طرد قطعان النجوع التي كانت ترعى بالقرب منه، بل طرد حتى الرجال حيث كان يتتبعهم الى أن يغبوا عن أنظاره. استمر الموكب الراحل في السير في البرية قاصدا المكان الذي حدده رجال النجع، وعلى رأسهم زعيمهم بوحرف. استمر الرعاة يسوقون الأغنام والإبل سوقا غير مألوفا. وامتطئت النسوة ظهور الحمير وخلف بعضهن أطفال صغار. كانت تحاط بالموكب كوكبة من الفرسان المدججين بالسلاح. كانت بين الفينة والأخرى تنطلق صيحة شاة باحثة عن صغيرها. كما كان يتعالى صهيل الخيول بين فترة وأخرى. عشرات الحمير تمتطئهن النسوة، وعشرات الخيول يمتطيها الرجال، ومئات الشياه والإبل تسقى من قبل الرعاة في هذا الموكب الراحل بعيدا. هب النسيم العليل على الموكب الراحل، اصطدم ذلك النسيم مع حديث امرأتين كانتا تتبادلا أطراف الحديث عن أحوال الدنيا وما ألت إليه ظروفهم.

كانت كل واحدة تركب حمار يسير موازي للآخر. كانت الحمير تسير مسرعة وكأنها هاربة من ضباع الجبل. قالت أحدهن للأخرى:

– خطرها يا اخدوجه تذكري هاضكي السنة ايش صار العيت سعيد..؟

فردت عليها الأخرى قائلة:

– آه... انقني انتذكر ايش صارلهم...

– باهي قوللي ايش صار البنت ولد عمي فاطمة مرت الحاج سعيد...؟

فردت المرأة مجيبة:

– ازعلت من عربنا واقعدت ثلاث اسنين وما خشت غوشنا..

– عندها حق يا تضربو هل دارها وتبيها تزورنا... يا ريت اللي صار ما صار... يا ريت شيخنا كيف الحاج سعيد...

هبت نسمة أطرشت أذان العديد مما كان في الموكب الراحل، فتلاشى الحديث بينهن، ولم يتواصل الحوار بينهما بعد أن ضاع الكلام وعم الضجيج اثر تزاحم الأغنام على بقعة من الأرض، قد صارت خضراء حيث تبعثر فيها العشب الأخضر الى أن صار يرتفع عن وجه الأرض واقفا على هامته متجها برؤوسه نحو السماء.

كان على رأس الموكب الحاج بوحرف نفسه، والذي صار يسير في طرف الموكب الراحل على صهوة جواده الابتر. كان بجانبه صديقه الحاج سعد، والذي طالما شاركه العراك منذ الصبى. نظر الحاج بوحرف لصديقه وقال:

– قولي يا سعد توا نابيدي غلطان يا خويا سعد..؟

– لا يا ياحاج بوحرف...

– باهي ايش اتقول الهل صبيا اللي زلطن وجهي قدام عرب الغوش..

– خلك منهن هاذين صبيا ميعرفنش يتكلمن بلكل.. وعلي قولت العرب معيز اولوطارن.

– انبي يا خويا سعد ايش انديرلهن...

– هاذين صبيا جاهلات... فكك من دوتن....

خليهن ايتكلمن ساع يبطلن ويتغير كلمهن لسريب آخر...

– وهي قولتك هاذين صبايا فيسع ما ينسى ويغير كلامهن..الصبايا كلامهن واجد.

اظني كلامهن اكثر من عدد شعر روسهن.... او قالها هاذكي التباوي كان لحمار طبس لقا ما ياكل وكان طبست الوليه لقت ما تحكي.....

تسربت بعض الدماء من ثياب الحاج بوحرف، وصارت تسيل محدثه سيلا صغيرا، لم ينتبه إليه الحاج سعد، الذي انشغل في الرد على أسئلة الحاج بوحرف. استدر الحاج بوحرف نحو الحاج سعد وهو شاحب الوجه محمر العينين وكأن عينيه قد دخل فيهما غبار، كان يصارع الموت في صمت، دون أن يتألم خشيت أن يشمت فيه الحاج سعد وأفراد النجع خاصة النسوة، سعل سعلة خفيفة وقال:

– يا سعد توا بعد ما نوصل ارض عيت بواحطبة ننزل عندهم... الحاج بواحطبة قريني... ومن زمان ايقولي تعال انت واعربك حطو علينا.. عندهم مراعي واجدا وميا واجدا.

- ازعما يا حاج غوشهم قريب علينا توا...؟

- الله والعليم قريب انخشو احدود ارضهم....

توقف الحاج بوحرف عن الحديث، وهو يلتقط بعض الأنفاس في صمت رهيب، ثم شرع يقول:

- يا اسعودا يا خويا تعرف ان اولدي مجيد اسروه في هالعركة... او عويل عيت عبدالسلام... نبيك بعد ما انحط عند عيت بواحطبة اتلم عربنا وضنا عمنا وتردو اولدي وعويل النجع كلهم.

وما أن اكمل الحاج بوحرف كلامه، حتى وقع من على حصانه مغشي عليه، فأسرع صديقه الحاج سعد، ونزل من حصانه وتقدم يجره نحو الحاج بوحرف. قام الحاج سعد برفعه ولكنه وجده ينزف دماءا كثيرة صارت تغطي ثيابه، صرخ الحاج سعد مناديا أحد الفرسان كان خلفهم وقال:

- تعال يا عبد الله.. تعال ساعدني في شيل الحاج بوحرف فوق احصانه.

اقبل عبد الله مسرعا على حصانه نحو الحاج سعد والحاج بوحرف، وما أن اقترب منهما حتى نزل من فوق حصانه، وتقدم نحوهما، فوجد الحاج بوحرف طريح الأرض، وبجانبه الحاج سعد. حاول الاثنان رفعه، ولكنهما تفاجأ بأنه قد فارق الحياة. نزع الحاج سعد جرده وطرحه على الحاج بوحرف، ثم قال مخاطبا عبد الله:

- توا يا اعبودة خلينا نعقبو هناهي..

وبعد ما يبتعدو هالعرب ندفنوه هناهي...

توا وراس عبد الله عدي كلملي الحاج اسليمان

والحاج على بيش ندفنوه قبل ما يفطنو به هالعرب....

فرد عليه عبد الله قائلا:

– كيف ندفنوه هناهي في هالوطن الخالي...

– ما عندنا ما ندير طريقنا مازلت طويلة...

تبيلنا يومين بيش نوصل عرب قرين المرحوم بوحرف..

تردد عبد الله وأخذه الارتباك في محيطه، إلا انه تقدم الى حصانه، ووثب عليه ثم انطلق به ليخبر بما حدث الحاج سليمان والحاج علي، وهما من شيوخ النجع.

سعد هذا كان من عمر بوحرف، طويل الأنف، ذو بشرة بيضاء، كانت تبرز من وجهه عينين عسليتين، كان ملتحي. يمتاز بالخبث، لا يمتلك الشجاعة الكافية لإظهار غضبه. كان من أكثر المستفدين من بوحرف.

انتقل الحاج بوحرف الى الدار الآخرة، ودفن في الخلاء، مات دون أن يتألم ويئن رغم الطعنات التي كانت في جسده، وقطع الحديد التي استقرت في صدره.. مات الشيخ، مضى النجع يسير في موكب وهو لا يعلم ماذا تخفي له الأيام والسنين.

(11)

أفراح النصر

رجع فرسان الحاج سعيد، بعد أن تأكدوا بان نجع الحاج بوحرف قد رحل وانتقل الى مكان بعيد. رجع الجميع وهم في حالة من الفرح بالنصر الذي حققه على ابو حرف، وبرحيل العدو والذي طالما تعرض لهم في مراعيهم ومسقاهيم. رجعوا حاملين النصر للنجع وهم تغمرهم الفرحة بهذا النصر الذي سيكون حافزا على عودة البهجة والسرور لسكان المنطقة، التي كان يغمرها الحزن واليأس من أثر جور وظلم عائلة بوحرف عليهم، وعلى مواشيهم وحرثهم وآبارهم، ذلك الجور والظلم الذي كان مدفوع من يد خفية.

بعد مضي فترة وجيزة، وصل فرسان نجع الحاج سعيد نجعهم ليلا، وكان على رأسهم الحاج سعيد، تم استقبالهم بالزغاريد من قبل نسوة النجع، واللاتي اصطفن أمام الخيام مستقبلات فرسان نجعهم، الذين انتصروا ورفعوا رؤوس النجع عالية. توقفت مجموعة الفرسان أمام خيمة الحاج سعيد، والتي في العادة يستقبل فيها الضيوف، والتي كان يقف أمامها أعداد غفيرة من أهل النجع، وكانت هناك أكوام من الحطب قد اوقد فيها النار، وصارت تأكلها النيران، والتي صارت بدورها تطفئ ظلمة المكان المحيط بها. ترجل الحاج سعيد من صهوة جواده فاستقبله أحد الرجال ممن تجمهروا أمام خيمته مرحبا وهو يقول:

– مرحبا بشيخ نجعنا... مرحبا بكسار خشوم من طنشو علينا... مرحبا من لاز من قتلو ضنانا... مرحبا يا من امعاك ارجال يداعو عالنار الحمرا.

ارتسمت على وجه الحاج سعيد ابتسمة دائرية وقال:

- هيا يا عرب خشو... وين العشا يا عويل...

هيا تفضلو خشو... هيا يا عويل خوذو الخيل واربطوها..

وردبالكم تنسو ان تعلقو عليها حتى هي اتعبت امعانا.

دخل الفرسان ومعهم الحاج سعيد، بعد أن خلعوا أحذيتهم أمام الخيمة، وبعد أن أعطوا خيولهم لشباب النجع الذين انطلقوا بها لربطها خلف الخيام. جلس الحاج سعيد داخل الخيمة التي كانت مفروشة بالكامل باكليم وطرحت فوق ذلك الاكليم أعداد من النطوع واصطفت بالقرب منه عديد الوسائد بمختلف الالوان والأحجام، كانت الخيمة مضاءة بمصابيح فخارية معلقة على عموديها اللذان بمنتصفها. تربع بعض الفرسان على النطوع، عم الضحك والهرج والمرج بين الحاضرين، وتعالت الأصوات داخل الخيمة. دوت طلقات بعض البنادق في أرجاء النجع. وما أن مرت فترة حتى اقبل الصبيا بأواني الغسل وقال أحدهم:

- هيا اغسلو للعشا..

تربع الفرسان في حلقات مكونين دوائر من أجل تناول العشاء الذي أعده نجع الحاج سعيد، بعضها تضم خمسة رجال والبعض الآخر تضم عشرة أفراد. تربع الحاج سعيد في حلقة تضم تسعة رجال. اقبل صبي نحو الحلقة المتواجد بها الحاج سعيد يحمل أواني غسل ووضعها أمام الحاج سعيد وقال:

- هيا يا حاج خليني انصب عليك.

بعد أن تم غسل أيدي الرجال، اقبل الصبيان يحملون القصاع المملؤة بالطعام، بعض تلك القصاع يحملها ثلاثة من الصبيان. كانت تلك القصاع مصنوعة من الخشب بعضها صنع محليا وبعضها الآخر جلب من المدينة، والتي جلبتها من مدن الباب العالي. شرع الرجال في الأكل، وقف الصبيان عند فوهة الخيمة في أنتظار صدور الرجال من الأكل، لكي يقومون بتقديم اواني الغسل من جديد. صار الرجال يصدرون من تناول الوليمة، التي أعدت في خيمة الحاج سعيد احتفالا بالنصر. توقف الحاج سعيد ومن معه من تناول الأكل بعد أن شعروا بالشبع. تقدم صبي في العاشرة من عمره يحمل وعاءا وكوبا من الأواني النحاسية وقال:

– هيا يا سيدي سعيد.. مد ايديك خليني انصب عليك...

فرد الحاج سعيد قائلا:

– صب على سيدك اسليمان لول..

نطق رجل كان متربع بالقرب من الحاج سعيد قائلا:

– والله تغسل انت لول يا حاج سعيد...!

فرد الحاج سعيد قائلا:

– لا هاضا كلام اصغير يا حاج.. لا ما يسير هالكلام..

انتم اضيوفي... هيا يا ليد اغسل على سيدك... هيا صب عليه...

ارتبك الصبي وصار يفكر بمن يبدأ به أولا، ولكن تقدم الحاج سليمان لوعاء الغسل فك ارتبك الصبي، فشرع يسكب الماء من الكوب الذي يحمله

بيده اليمنى على يدي الحاج سليمان، الذي صار يفرك يديه ويغسلها بما سقط عليه من ماء.

لم يعيش نجع الحاج سعيد فرحة عارمة مثلما عاشها في تلك اللحظات. عم السرور عند عودة الجميع سالمين. لم يقتل منهم أحد ولم يخطف منهم طفل. اصيب منهم عشرة فرسان بجروح بعضها من طلقات البنادق والبعض الآخر من الحجارة والهراوات.

بعد أن انتهى الصبيان من جمع الأواني ونقل القصاع. تربع الرجال جالسون في خيمة الحاج سعيد، وتعالى الجادل والحديث بين الحاضرين. قال الحاج سليمان والذي كان يجلس على يمين الحاج سعيد، والذي كان من سنه:

– قولي يا حاج سعيد.. توا بعد ما لزينا بوحرف واعربا ازعما ايش انديرو...؟

فرد الحاج سعيد، وهو يمعن النظر في جميع الحاضرين قائلا:

– آه ايش انديرو والكلام للجميع..! ما علينا الا ان كونو فاطنين حلين اعيونا..

بلكي ايردو علينا ونحن غافلين..!

حك الحاج سليمان يده اليمنى ثم قال:

– يا حاج ازعما انقتل بوحرف والا لا...؟

فرد أحد الرجال من زاوية الخيمة الغربية قائلا:

– انقنا انضرب ضربا في صدرا.. ما ضني ايعيش منها بلكل...

اضربا سميت صالح ابناخي الحاج سعيد ولد الحاج بوبكر..

وقال آخر من نفس المكان:

- سميت صالح بنداق بدعا.. الوجه اللي يطلع من بندقتك

ويريدا شور صاحبا ما يذهب عليه بلكل...

وانطلق رجل آخر كان على يمين ذلك المتحدث، كان في الاربعينات من عمره، متوسط القامة ذو شنب طويل، وذو وجه دائري قائلا:

- انقنا يا عرب انقتل وريت وين ولد خوه سميت حسن وهو يعيط عليه..

سعل الحاج سعيد سعلة خفيفة كاذبة، وكأنه يود أن تتوجه إليه الأعين، وان تصغي الأذان لما سيقوله من كلام، ثم قال:

- يا عرب توا ما علينا الا ان كونو فاطنين...

وبعدين كل واحد يبلغ اعربا بان يكونو فاطنين

هالايام خاصة قاصة في الليل.... وبلغو ارعويتكم

ما عدوش يرعو بعيد... وما عاش ايرمسو في الليل

وما تطيح الشمس الا والساعي حيش وقعد اقريب من لبيوت.....

وما تقولوش كيف ما قالت العرب الحذر لا يمنع قدر...

آه يجب ان كونو فاطنين...

نظر الجميع للحاج سعيد وقالوا:

– صدقت كلامك صحيح يا حاج سعيد.. لزم ان كونو فاطنين بلكي يردو علينا وانعدو ضحكه..

رفع الحاج سليمان رداءه، فنظر اليه الحاج سعيد وقال له:

– كنك يا سليمان.. كنك مستعجل.. تريح اشويا...

فرد الحاج سليمان قائلا:

– والله يا حاج سعيد توا نحن كلينا وشربنا والله ايزيد من هالنعمة ونريد انعدو الهلنا بيش نفرحوهم ماراهم الا مشغولين علينا...!

نهض أحد الرجال من الزاوية الغربية للخيمة، وقال موجها كلامه للحاج سعيد:

– انقنك يا حاج ارخصلنا.. خلينا انعدو بدري راهو الا هلنا منشغلين علينا.

نهض الحاج سليمان، ثم نهض الحاج سعيد الذي قال:

– يا عرب كنكم.. تريحو خيرلكم..!

قال الحاج سليمان وهو يلملم رداءه:

– توا يا حاج ارخصلنا والله ايزيد من خيرك اوخير نجعكم وبعدين توا انريد انعدو انسلمو على خوتك الصالحين وبوبكر وباتك الحاج عبدالرازق..

قلولي الحاج عبدالرازق مريض والصالحين وبوبكر قاعدين عندا

ازعما وين بيتا؟

فرد الحاج سعيد قائلا:

- بيت باتي هو البيت اللي بين بيتي وبيت خويا الصالحين..

فقال الحاج سليمان:

- او باهي ساع نعمدو بيت الحاج عبدالرازق انسلمو عليه

وبعدها انتوكلو شور هلنا... هيا تبقو على خير..

انطلق الرجال الذين كانوا مع الحاج سليمان من خيمة الحاج سعيد، قاصدين خيمة والده الحاج عبدالرازق ذلك الشيخ الذي تجاوز المائة عام، كان الحاج عبدالرازق هو شيخ القبيلة، ولكن بعد أن صار هرما وكبر في السن تركها لابنه الأكبر سعيد، والحاج عبدالرازق متزوج من أربعة نسوة أحدهن والدة الحاج سعيد، وقد توفت بعد أن أنجبت له سعيد ومسعودة وامساعدة، أما الثالثة أنجبت له ثلاثة بنات هن جازية ونجمة وزينب، وهي الأخرى توفت قبل أربعة سنوات، والأخرى أنجبت له ابوبكر والحسين، وقد توفت منذ سنتين، أما الزوجة الرابعة فهي بارقه وهي أصغرهن، وهي التي تعيش معه الآن، وقد أنجبت له امهيوس والصالحين وفاطمة وهم اصغر أبناء الحاج عبدالرازق.

بعد أن استضاف الحاج سعيد فرسان من نجعه والنجوع التي ساعدته في عراكه مع نجع الحاج بوحرف. رجع الفرسان الى نجوعهم، التي تبعد بعض المسافات عن نجع الحاج سعيد لنقل الفرحة لنجوعهم التي هي على أحر من الجمر في أنتظار الأخبار عن المعركة النهائية مع نجع بوحرف، حاول شقيق الحاج سعيد الصالحين استضافتهم في النجع عندما زاروا الحاج عبدالرازق والد

الحاج سعيد، إلا انهم أصروا على الرجوع الى نجوعهم لإبلاغ ذويهم بالنصر وبنهاية الطاغية بوحرف، الذي قطع الأرحام وسفك الدماء واغتصب الأراضي والمواشي. العديد من فرسان نجع الحاج سعيد وعلى رأسهم الحاج سعيد نفسه لم يكن في نيتهم محاربة نجع الحاج بوحرف. وكان هناك من يعلم ويدرك بان كل هذه المشاكل عبارة عن سيناريوهات خطط لها الباشا وولاته وباكواته من اجل ديمومة واستمرار حكمه وحكم أسرته. فآثرت النزعات وإشعال الفتن صار الشغل الشاغل للباشا وأعوانه. فبعد أن تربعت عائلة الحاج بوحرف على المنطقة وصارت تشكل تهديدا للأسرة القره مانلية، فقد قلت الضرائب التي كانت تدفع للباشا وأسرته. كما قل التعاون من اجل الباشا، وتغلل بعض الغرباء من خارج الولاية خاصة من حكام مصر الذين وطئوا علاقتهم مع الحاج بوحرف، وصار يتلقى منهم عديد الهدايا، وصار الحاج بوحرف هو نفسه يقوم بزيارات لهم حتى انه ذات يوم من أحد السنوات وصل قاهرة المعز وقابل عديد من الشخصيات الهامة هناك. كان حكام مصر يرمون من ذلك كسب مزيد من الأراضي بما فيها لدولتهم، رغم تحالف بعضهم مع الباشا وأسرته. لم يدرك الحاج بوحرف ما كان يخطط له ولعائلته من قبل حكام مصر فانغمس في الوحل، الذي أعماه عن رؤية الحقيقة. وصار يتلهف شوقا للهدايا المملوكية. وانحرف عن مساره وصار يتخبط في علاقته مع أبناء عمومته. قام بالانفصال عنهم بعد أن تكاثر نسل عائلته. لم يكن ابوحرف وعائلته الضحية الأولى التي طردت من أراضيها بحكم السلاح، فقد كان القره مانليون ينفذون سياسة التفرقة التي ورثوها عن سادتهم العثمانيين بهدف تثبيت حكمهم فهناك الكثير في كل ارجاء ليبيا.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	3
تنويه	5
(1) فرق تسد	9
(2) الحاج بوحرف	14
(3) الاجتماع وشرارات عراك	21
(4) هم	28
(5) الإنذار	34
(6) المعركة	38
(7) الهزيمة والنصر	44
(8) الرحيل	49
(9) الرجوع لساحة المعركة	53
(10) نهاية بوحرف	57
(11) أفراح النصر	62